# ٥ ـ فى أرجاء سينـــــاء

للدكتور عبد الوهاب عزام

على ظهر الجمل

أزمع أكثر الرفاق أن يذهبوا يوم الخميس إلى جبل سنت كترين وهو أعلى جبال سيناء ترتفع قمته إلى ٨٥٣٦ قدم ، وفى قصص الرهبان أن القديسة كترينا حينما ماتت فى الأسكندرية سنة ٣٠٧ م حملت الملائكة جثتها إلى هذا الجبل ، وقد بقى منها جمجمة وذراع يحفظان فى الدير إلى اليوم

وآثر بعضهم أن يعكف على مطالعة الكتب فى مكتبة الدير ، وأما أنا فأزمعت أن أركب جملاً فأسير به فى وادى الشيخ إلى القبر الذى يسمى قبر النبى صالح . قيل لى كيف تطيب نفسك عن رؤية الجبل العظيم أعلى جبال سيناء ؟ قلت إن برجلى عقابيل من جبل موسى فلست أقوى على الصعود اليوم ؟ قيل ولكن قمة سنت كترين قليلاً لا يشعر به يتعاظم بمرور السنين فيصبح لهجة خاصة ، وأن ذلك يطرأ ولو كان العنصر سلياً نقياً من كل امتزاج . وهم يدعون أن أوربا لو كانت مأهولة من جنس واحد ، وكانت معزولة عن كل عامل خارجى من زمن الأهرام حتى الآن لظهر عليها اختلاف اللهجات رغماً من ذلك[1] على أننا نلاحظ أن يهود ألمانيا يتكلمون مع ذلك بلهجة محسوسة ، وكذلك فى البلاد الأخرى ، تميزها عن كيفية إخراج الكلمات لدى المواطنين ، ولكنهم يجيبون عن ذلك بأن اليهود يعيشون بصورة عامة فى محيط واحد متكتلين

وحاول Gunther زعيم العنصرية فى ألمانيا أن يبرهن على أن الجرمان لم يبتعدوا عن اللغة الجرمانية الأصلية ، وأنها هى هى لم تتغير . ولكن اختلاف اللهجات الألمانية ، وكذلك أشكال الجسم والعداوة الموجودة بين المقاطعات ، مثلاً بين سكان بروسيا وسكان بايرن ، والاختلاف الكبير بين عادات سكان هامبرك وبرلين، يدل على أن بحث العنصرية لا يستطيع التغلب على المشاكل التى بحثنا عنها ، ويجد حلاً معقولاً لذلك علمياً .

(١) نفس المصدر ص ٢٢١

تشرف بك على جبال بلاد العرب . قلت قد رأيتها عن كثب قيل : وتريك الخليجين معاً : خليج السويس وخليج العقبة قلت : لا أحتاج فى تصديقكم إلى أن أرى بنفسى . قيل : إنه مشهد يتمناه كثير من الناس. قلت : ما كل ما يتمنى المرء يدركه

سار الرفاق إلى الجبل وخرجت فإذا جلان مرحولان فركبت أحدهما وركب محمد أفندى حشيش الطالب بكلية الآداب الثانى ، وسرنا مغتبطين بهذه الرحلة الممتعة الغريبة . فلما أفضى بنا الشعب الذى فيه الدير إلى وادى الشيخ أبصرنا الحاج سيد محرم الطالب بالكلية راجعاً من حيث توجه إخواننا إلى الجبل. قلت: ماخطبك؟ قال : تلبثت لأصور بعض المرائى فانقطعت عن الرفقة . قلت: خار الله لك سر معنا نتعاقب على الجمل . رحم الله حاتماً :

وما أنا بالساعى بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوى حقيبة رحلها ... لأبعثها خفّا ، وأترك صاحبى
إذا كنت ربّا للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب فعاقب

والبشرية تتقدم، وبتقدمها تظهر أشكال وخطوف رءوس جديدة وهى غير متشابهة ، منها المنتج ومنها الخامل لعوامل مختلفة ، وللملامح وتركيب الجسم والمحيط والأكل والمهنة أثر فعّال فى تكييف الفرد ، وكل أمة فى الحقيقة عبارة عن بضع أمم مختلفة فى المصالح ، ولو أنها متحدة فى الدين أو اللغة مثلاً ، ولكل منها وجهة نظر خاصة ، وهدف يصطدم مع هدف غيرها ، وهذا مصدر الحزبية والنزاع ، وسقوط الدول فى نظرى ، والأمة التى تستطيع تقريب وجهات النظر بين هذه الطبقات تتمتع بوحدة ، والتى تترك هذه الطبقات تزيد فى قوة كيانها، تعرض نفسها إلى تمزق لا يلبث أن يظهر بصورة كتل مستقلة ذات تفكير مستقل ومظهر غريب خصوصاً فى المحيط الشرقى الذى لا تربط بين أجزائه طرق مواصلات جيدة ولا صلات تفكيرية قوية . لا زالت حاجة الأقاليم فى المملكة الواحدة بعضها إلى بعض غير شديدة . فكرة الحاجة إلى المجتمع والتعاون لم تتغلب على روح (أنا) فيه كما هو شأن كل أمة فى ابتداء تكونها .

مراد على
خريج جامعة هامبرك بالمانيا

سألت صاحب جمل : ما اسم الجمل ؟ قال هِدّيان . وما اسمك ؟ قال : فرحان . وسألت الآخر فقال : اسمى جبلى واسم الجمل صبيح

بعض طلاب الجامعة وبعض صبية الأعراب فيهم سعد في أقصى اليسار

وكان سادسنا صبيًّا فطناً لقناً يسمى سعداً ، رآنا نتأهب للركوب عند الدير فتطوع لصحبتنا عسى أن يناله خير . مشى سعد وقد جعل يديه وراء ظهره تحت حزامه وأطبق أنامله بعضها على بعض ، واستقام على الطريق يوحى إليك بمشيته وحديثه اعتداده بنفسه . وهو صبي يكدح لرزقه ورزق أمه ، فهو يحمل من أعباء الحياة ويشعر بكفايته لما يحمل . والرجولة بين العرب تبتدئ في العقد الثاني من سني العمر ، لا تعتد الطفولة والصبى بينهم امتدادها في المدن حيث ترى الرجل صبيا وقد جاوز العشرين وطالباً إلى أن يجاوز الثلاثين ، وكهلاً متصابياً يُعدّ نفسه للزواج عند الأربعين . ومن أجل ذلك أمّر رسول الله صلوات الله عليه أسامة بن زيد على جيش وهو في السابعة عشرة . وفتح محمد بن القاسم الثقفي الهند وهو في هذه السن . قال بعض الشعراء :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لخمس عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد !

وقال آخر :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال

قلت لسعد : ماذا يسمى حزامك هذا ؟ قال : مريرة . قلت من قولهم أمرّ الحبل إذا أحكم فتله

وكنا سألنا ونحن في الدير عن دجاج لطعامنا وكلفنا سعداً أن يفتش عن بعض الدجاج . وقابلنا طائفة من البدويات يقصدن الدير ابتغاء رزقهن من الخبز ، ومال سعد إليهن فسلم عليهن وكلم إحداهن . وقال أحد الجالين : هذه أم سعد . وسألت سعداً فجمجم ولم يجب ثم قال : عند امرأة دجاجة واحدة. قلت: ما عسى أن تغنى دجاجتك الواحدة يا سعد ؟ وحسبت أن سعداً استحى أن يقول إن التى حادثها أمه وإن الدجاجة دجاجته وأحس شيئاً من الخجل أن يبيع لنا دجاجة ، وكذلك قال صاحب الجمل حينما سألته : لماذا لا يقول سعد إن المرأة أمه.

وعرف سعد من سؤالى عن ضروب النبات أنى معنىّ بها فوجد له عملاً يبرّر مصاحبته إيانا ، ويجعل له يداً عندنا . فكان لا يمر بنبات إلا سماه وقلعه أو قطع فرعاً منه ، وناولنى إياه فأضمه فى الخرج

عند عين ماء بين صخور في سفح جبل بوادي الشيخ

ناولنى شجرة من الشيح فسألته عن القيصوم وكنت رأيته بالبادية على مقربة من البصرة ، فأسرع بعد قليل إلى نبتة وقال : هذه قيصومة وناولنى منها ، وهى تشبه الشيح ، وتمتاز عنه بلون زهرها ، ولا يدرك الفرق بينهما إلا النباتى أو البدوى المرن على تمييز ضروب النبات وإن تشابهت . ثم مررنا بنبات صغير لاطىء بالأرض له عصارة لزجة فقال : وهذه لبيدة . رأى شجرة من الشوك كبيرة فقال : هذه سلة وما أكثر السلة فى سيناء ، ثم سمى من ضروب النبات التى مررنا عليها الوراقة ، وهى نبت قليل الشوك تأكله الإبل ، والكَبَاث وهو يشبه السلة إلا أنه أضعف شوكاً ، وكان هدّيان إذا مرّ بكباثة أبى إلا أن يميل إليها لينال منها . والكباث فى معاجم اللغة ثمر الأراك ، وهو غير هذا : ومما رأينا النعمان والخزامى ، وهو شجيرة تنبت كالعصا لها فروع قصيرة . وقد رأيت منها واحدة يابسة فأشرت إلى سعد فجرى إليها وحاول خلعها فاستعصت عليه فناديته أن اتركها ،

فأبى وما زال يقوم بها ويقعد حتى أتى بها . وأرانى سعد النعمان وأصابع البجوز والمرُورة والبركان والدهمىّ، وكلها نبت ضعيف صغير . وكنت أمتحن سعداً فأسأله عن النبات الواحد مرة بعد أخرى فأعرف أنه ينطق عن معرفة . ومما رأينا الزعتر وهو نبات طيب الرائحة معروف فى مصر والشيران، قال سعد : وهو نبات الحمير ، وهو نبات صغير له فروع وورق دقيق ورائحة طيبة ، والهنيدة والجعدة والشكاع الخ

وقصارى القول أنه ليس فى البرية نبتة صغيرة أو كبيرة إلا يعرفها الأعراب باسمها ووصفها وخصائصها

ولقينا فى وادى الشيخ أعرابيتين معهما قربتان صغيرتان ، فكلمهما جبلى وكان يعرفهما. وسألته أين الماء؟ فقال: هنا وأشار إلى سفح الجبل ، فنزلنا وصعدنا بين صخور عظام ، حتى بلغنا فجوة بين الصخور فيها ماء بارد، فجلست الأعرابيتان تملآن قربتيهما

والأعرابيات فى سيناء يلبسن ملابس ضافية ، حواشيها مطرزة ملونة ، وهى من نسج أيديهن ، ويلبسن براقع عملاة بقطع كثيرة من المعدن ، ويحلين صدورهن بخرز كثير ، فلا يبدو من المرأة إلا عيناها . وقد استأذنا المرأتين أن نصورها ، فقالت إحداها ضاحكة : بالفلوس ، قلنا : أجل .

بدويتان فى وادى الشيخ

ثم بلغنا الشيخ صالح بعد ساعتين : حجرة صغيرة مضلعة ، عليها قبة ساذجة ، وفيها قبر يقول الأعراب إنه النبى صالح ، وأكبر الظن أنه رجل من الصالحين اسمه صالح وللشيخ صالح موسم يأتى البدو إليه فيبيتون وينحرون ويذبحون ويلهون

وقد أمر الملك فؤاد رحمه الله بصنع كسوة لضريح النبى صالح وهى مودعة فى دير سنت كترينا كما ذكرت قبلاً

لم نلبث كثيراً عند الشيخ صالح فرجعنا أدراجنا ، وقد عرَّج سعد إلى اليسار فغاب قليلاً ، ثم رجع وفى يده دجاجة . قلت : يا سعد ، أصررت على الإتيان بدجاجتك ؟ قال : ليست دجاجتى قلت : ولكنها واحدة ، ولا تغنى شيئاً . قال : ما وجدت غيرها قلت : فلم جئت بها ؟ ثم سار سعد والدجاجة ، حتى وقفنا وقفة فأفلتت منه . فقلت : لا يظفر بها . فما لبث أن جاء بها فوضعها فى كيس خلف ظهره ، فلم نسمع لها حسًّا ، حتى بلغنا الدير . قلت : يا سعد ، لم يجد الطباخ دجاجاً ، ونحن أكثر من عشرين فماذا نفعل بهذه الدجاجة ؟ فوجم ... قلت : ارجع بدجاجتك وخذ هذه القروش ، ففرح وزدناه بغض الخبز

خرجنا من الدير صباح يوم الجمعة فألفينا صبية بأيديهم أشياء يقدمونها إلينا ؛ ناولنى سعد نباتاً قائلاً : هذه هنيدة . قلت : لم تزدنى على الأمس شيئاً . وقدم إلىّ صالح عصاً من الورد البرى كثيرة الشوك فأخذتها ذكرى ، ثم زرعتها فى حديقتى بعد أيام فأورقت . وقدم الصبية الآخرون أقلاماً للسجاير من هذا الورد لا يحسن الإنسان إمساكها لكثرة شوكها

ثم أزَّت السيارات فسارت والساعة ثمان ونصف فرجعنا أدراجنا فى الأودية التى ذكرتها آنفاً

ونزلنا فى دير فاران الذى وصفته من قبل ثم استأنفنا السير فى وادى فاران . وبعد ساعة من دير فاران توقفنا قليلاً فأبصرت صبيا يرعى غنما فقصدت قصده وقلت: ما اسمك يا ولد؟ قال : اسمى ولد — وكأنه لم يعجبه هذا الخطاب — قلت: اسمك محمد ؟ قال : ربيع . قلت : أتبيعنا خروفاً من غنمك ؟ قال : لا . ثم سألته عن ضروب العشب ، قلت : ما هذا ؟ وأشرت إلى نبات ضعيف يشبه البصل. قال: بَرْوَق، أقول: البروق معروف فى كتب اللغة والأدب والنبات . وتقول العرب هو أشكر من بروق لأن البروق يعيش بأدنى ندى يقع على الأرض. وقالوا: أضعف من بروقة. قال جرير:

كأن سيوف التيم عيدان بروْق إذا نضيت عنها الحرب جفونها

ثم سألت ربيعاً عن نبات آخر قال : هو الرمث . قلت : قد رأيت الرمث فى العراق وهو أكبر من هذا ، فهل يطول الرمث أكثر مما أرى ؟ قال : لا . قلت : إن رمثك هذا عجيب . وتذكرت قول أبى الطيب فى قصيدة ابن العميد يصف ناقته :

تركت دخان الرمث فى أوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا